الأدوات غير اللغوية ووظيفتها في التواصل الشفوي

نورالدين رايس*

مقدمة:

التواصل بين الناس قد يكون كلاميّاً أو غير كلامي، ويقصد بالتواصل غير الكلامي، أي كل الحركات والإيماءات المستعملة بوصفها علامات للتواصل، إما في حد ذاتها، وإما مركّبة مع الكلام المنطوق.

والتكلم هو إظهار العلاقات التي تربط بين الفكر والجسد في لحظة من الزمن، فالأحناك المنتفخة، والبسمة المنحرفة الصفراء، والحاجبان المعقودان، والجبهة المجعدة، والذقن الحادّ، وجحوظ العينين، والتنهدات، والترنحات كلها "تعابير" (مجازاً) من نوع مختلف تعزز الكلام أو تصححه أو تلي الكلمات الحقة للسلسلة الكلامية، لذلك قال بركسون: "تُزَاحِمُ الحركةُ الكلامَ عند الخطيب، وهي غيورة منه بحيث تتاسبق معه للفكرة وتطلب أن تكون هي أيضاً ذات تأويل".

ومن أجل هذه الغايات يرى ميلر G.A Miller أن الطبيب النفسي الماهر عليه أن يتعلم كيف يفهم أشياء أخرى غير الكلمات، وكيف يستفيد من الإشارات غير الكلامية. وآنذاك لن يكون هناك معاجم تساعدنا على تحليل التواصل غير الكلامي، لكن هناك أبحاثاً جارية منذ عشرين سنة، حيث إن الجدال حول الدلالات العالمية للحركات والإيماءات تعود إلى داروين وإلى مؤلفه الشهير "التعبير عن الانفعالات عند الإنسان والحيوان" The expression of the emotions in man and animals.[1]

---

* باحث من المغرب الأقصى.

[1] Lional Bellenger, *L'Expression Orale* (Paris: E. S. F., 1984)

ونظراً لما يضطر له الإنسان أثناء التعبير في ظروف معينة تجعله يسعى إلى تغيير مجرى الحديث، كأن يحضر شخص لا يرغب المتكلم في أن يعرف أخباره، فيستخدم المتكلم حينذاك عينه للغمز، فيغمز مستمعه أو المتحدث معه رغبة منه في أن يغير مجرى الحديث أو ليكفه عن التحاور معه.

وقد يضطر المرسل في أحوال أخرى أن يستبدل الكلام بالإشارة بيديه أو بتحريك جسده في اتجاه معين، أو بإيماء من وجهه، وذلك تبعاً لملابسات الظروف التي تحيط به، وكذلك تبعاً لمقدرة المستقبل الحسية فلا يمكن لمرسل بصير أن يستعيض عن الكلام بإشارة من يده إن صاحبها كلام، فقد يلتبس الأمر على مستقبله الأعمى فلا يفهم قصده. كما يحدث أن يكون المستقبل قد أدار وجهه يميناً أو يساراً فلا تستطيع الحركات أن تكون بديلاً للكلام في تلك الآونة.

ولذلك وجدنا التداوليين قد أعطوا هذا الجانب أهمية بالغة حيث قال أوستين فيما دعاه بما يصاحب التلفظ بالكلام ومستتبعاته في فقرة من الباب الذي خصه للعبارات الإنشائية الصريحة: "قد يساعد التلفظ بالكلام استخدام الحركات والإشارات من غمز، وتحريك للأيدي، وهز للكتف، وتقطيب للوجه وعبوسه، وغير ذلك، أو أفعال طقوسية غير لفظية، وهذه الأنواع من التعابير الحركية تستخدم أحياناً بدون أن يحرك الإنسان لسانه. وأهمية هذه الطرق والوسائل في التعبير واضحة لا تحتاج إلى شرح".[2]

ويرجع الفضل للأمريكي بورد ويسل Birdwhistell في محاولته (سنة 1950) تصور وتعريف علم للحركات الجسدية والإيمائية سماه بـ "الحركاتية" La Kenesique. وبوردويسل أنتروبولوجي كان منقطعاً لِلِّسانيّات، وقد دافع عن موضوع نمطية الثقافات، كما اعتبر أن تعبيرات الوجه وحركات الجسد تشكل نظام تواصل كاللغة المتكلم بها.

لقد شرع "بوردويسل" في بناء التواصلات غير الكلامية للإنسان على نموذج لساني، ونعلم جيداً أن اللغة ـ حسب مارتيني ـ ذات تقطيع ثنائي (أو تمفصل مزدوج)، الأول يستند على الوحدة الصوتيّة وهي الفونيم، والثاني يحيلنا على أصغر وحدة لها معنى: الوحدة الصرفيّة التي يسميها الغربيون المورفيم Morpheme.

---

[2] J.L. Austin, *Qrand dire c'est faire*, tradiction et introduction de *Gilles Lane* (Paris: ed. Seuil, 1970), p. 96.

الأشكال المختلفة للتواصل الحركاتي:

التواصل غير الكلامي كما قلنا سابقاً ـ كاللغة المنطوقة يمكن أن نتطرق له من ثلاثة جوانب كما قال "ليونيل بلنجر":

1. يصلح للتحديد أو الوصف أو التعيين.
2. يصلح للتعبير عما نشعر به، أو عند إضافة قيمة ما، أو الحكم على شيء ما.
3. تفسير تمظهر منسوب لثقافة معينة أو مكان أو غير ذلك.

فالتواصل غير الكلامي الوصفي: نميز فيه بين تلك الحركات والإيماءات الكثيرة على النحو الآتي:

1. التعابير المصوغة لإقامة قواعد نحوية لما هو غير كلامي، حيث يعبر شكل الحركة عن الجزم، أو النفي، أو الاستفهام، أو القصد المشروط، أو الإنكار... إلخ.

وتساعد اليدان والعينان على إبراز تلك الطريقة، فلكي نستفهم نرفع شيئا ما أجفان عيوننا، كما نعقد شيئاً ما الحواجب والجبهة أثناء رفعنا لرأسنا بشكل طفيف.

2. التعابير الإشاريّة: التي هي في حقيقتها حركات للإصبع (السبابة على الخصوص) وتصلح لتعيين المتكلمين، وموضوع التخاطب والمكان الذي نستحضر فيه الأشياء ...إلخ.

3. الحركات الوصفيّة: وهي طبعية جداً ويبدو أنها الأكثر شيوعاً في العالم، وبعضها متفق عليه (مثلاً نعبر عن سمك شيءٍ ما بتقريبنا ـ في شكل منقار ــ الإبهام والسبابة، ونترجم قولنا "إنه أحمق" بوضع سبابتنا على صدغنا، كما نترجم "لقد نسيت شيئا ما" بضربنا على الجبهة بكف اليد، ويصحب قولنا "إنه جميل" تكبير فتحة العينين... إلخ.

التواصل غير الكلامي التأثيري: إن التعبير عن المشاعر والانفعالات معقد جداً وغني في الآن نفسه. ونستطيع أن نلاحظ ـ في ثقافتنا ـ بعضاً من الحركات والإيماءات التي نضفي عليها دلالات اعتباطية آتية من التأثيرات.

فتحرك طرف الرجل يدلّ على القلق وعدم الصبر، وحك شحمة الأذن، ووضع السبابة على حافة ملتقى الشفتين يدلاّن على درجة الانشغال أو التردد في مسألة ما، والذراعان المنفتحان يرحبان، كما أن وضع اليد في موضع القلب يدل على الجهر

بالصراحة إلى غير ذلك.

التواصل غير الكلامي الرمزي: فقبضة اليد ـ مثلاً ـ تعني الاتحاد والتضامن، وقبضة اليد المرفوعة إلى المرفق تعني العداوة مع الخصم، وكل شكل من أشكال تقطيب الوجه أو انبساطه ترافق الكلام لتعززه وفي بعض الأحيان لتنوب عنه.[3]

أما د. هدسون في لسانياته الاجتماعيّة[4] فقد قسم السلوك غير الكلامي إلى "شواهد العلاقات" وهو ما يعكس الدراسة "التجاوريّة" La proxemique التي سوف نراها فيما بعد، "وشواهد البنية"[5] وهو ما يتحدث فيه عن الحركات المساعدة للكلام، وقسم ثالث خصصه لـ "شواهد المضمون".

وما يهمنا هنا هما القسمان الأخيران اللذان يمكن جمعهما في "الحركاتيّة" La Kenesique، فمما لا شك فيه أن التواصل غير الكلامي يساعدنا على تحديد بنية التواصل، وهكذا شواهد البنية حيث يكون التواصل الكلامي منمّطاً بوضوح مثل التواصل غير الكلامي. فالسلام مثلاً بالقول الذي ينتسب إلى التواصل الكلامي يوازيه نمط السلام بالأيدي، وهو ما يحل محله في بعض الثقافات حك الأنف، أو تكمله في ثقافات أخرى الأحضانُ والقُبَلُ، وذلك مثل تقبيل الأيدي بين الكبير والكبير، والصغير والصغير، والكبير والصغير، والصغير والكبير، وذلك حسب العلاقة الموجودة بين المشتركين في التواصل، كما يحل مكان التقبيل والأحضان وغيرها انحناءة الرأس عند اليابانيين والصينيين، ويبدو أن السلام بالأيدي في بريطانيا ـ كما قال هدسون ـ يُعَدّ إشارة على إعطاء العلاقة بداية جديدة بدلاً من الإشارة إلى وثوق العلاقة، ولذلك غالباً ما يستخدم السلام بالأيدي للتصالح بين الأصدقاء بعد القطيعة والعراك، أو عند التعارف لأول مرة، أو عندما يرى الفرد شخصاً لم يره منذ أمد بعيد.

وتُعَدّ الإشارات التلقينيّة Non Verbal Cues ـ حسب ما يرى هدسون ـ مهمة للغاية بالنسبة لبنية الخطاب وذلك من جهة التناوب في الحديث. إن من أهم الأسئلة التي يجب أن نثيرها عن التناوب عند الحديث، هو كيف يشير المتحدث إلى أنه على استعداد للتوقف عن الكلام والسماح للآخرين بالبدء في الكلام؟

---

[3] حسب ما ذكره ليونيل بلنجر في كتابه: **التعبير الشفوي** L'expression Orale.

[4] ترجمة الدكتور محمود عياد، **علم اللغة الاجتماعي** (القاهرة: عالم الكتب، ط2، 1990).

[5] وهي ما ترجم عن الإنجليزية بـ Structures Markers.

ومن أهم الإشارات التلقينيّة في مثل هذه الحالات "حركة العينين"، وقد اتضح من الدراسات أننا عادة ما ننظر في عيني المتكلم بخلاف الياباني الذي يكلمه مُعلّمه وهو مطأطئ رأسه ينظر إلى الأرض احتراماً له. حينما نستمع لفترات أطول، ونتخذ موقفاً مغايراً عندما نتكلم، ولـمّا نكون على أهبة الاستعداد للانقطاع عن الكلام، ونودّ أن نبدأ في الاستماع، ننظر في عيني المستقبل أو المستمع استعداداً للتلقي والانتباه. وعلى العكس من ذلك فإن المتلقي ينظر إلى الأسفل عندما يوشك أن يشرع في الكلام تمهيداً لتحويل دوره من مستمع إلى متكلم.

وليست حركة العيون هي الإشارة الوحيدة التي تدل على تغيير وشيك للدور، ففي بعض المؤسسات كالمدرسة والمؤتمر والبرلمان توجد إشارات نمطيّة رسميّة لتغيير الدور وذلك مثل رفع الأيدي عندما نرغب في الكلام، وهناك أيضاً إشارات أقلّ درجة من حيث النمطية الرسمية، وذلك مثل التحرك للأمام في المقعد أو التململ في الجلسة أو السعال لتمهيد الحنجرة للكلام، وهناك أيضاً وسائل لمجابهة مثل هذه الإشارات، وذلك إذا لم يرد المتحدث التوقف عن الكلام، مثل أن يتعمد النظر بعيداً عمن يطلب الكلمة حتى لا يتمكن الثاني من أن يلفت نظر الأول، وقد سمى إمبرطو إيكو هذا السلوك غير الكلامي الأنظمة التحتية Sous-codes.

أما شواهد المضمون ـ حسب هدسون ـ فهي تصلح في التواصل غير الكلامي للدلالة على مضمون الخطاب (أو الرسالة) وهناك أمثلة واضحة لهذا النوع من الإشارات في معظم الثقافات، وذلك مثل استخدام حركة الرأس للدلالة على الإجابة "بنعم" أو "لا". وهناك اختلافات ثقافية في أنواع إيماءات الرأس المستخدمة لكل هذين المعنيين، فبعض الثقافات مثل أوروبا الغربية والولايات المتحدة تستخدم الحركة من أعلى إلى أسفل للدلالة على "نعم"، أما الثقافات الأخرى مثل شرق البحر الأبيض المتوسط فتستخدم الحركة من أسفل إلى أعلى بينما تستخدم شبه القارة الهنديّة حركة مائلة أو دائريّة، ولكن يبدو أن استخدام حركة الرأس للدلالة على "نعم" أو "لا" واسعة الانتشار إلى درجة أنه يمكننا افتراض أنها إشارة "شموليّة" عالميّة على الرغم من صعوبة معرفة السبب في ذلك.

وهناك أيضاً حركات أخرى كثيرة تساعدنا على الإشارة إلى المضمون، فبعض

الناس يستخدمون أصابعهم للعد والإحصاء، وتَعُدّ بعض المجتمعات العدّ على الأصابع وسيلة متعارفاً عليها لإظهار العدد، وتوجد في الواقع اختلافات بين قبائل شرق إفريقيا في قواعد العدّ على الأصابع، وهذه الاختلافات تعتمد على نقطة بداية العدّ، هل يبدأ من الإبهام أم من الخنصر؟

وهناك أيضاً اختلافات أخرى بين هذه القبائل في الحركات المستخدمة للدلالة على طول الطفل، وذلك حسب اتجاه كف اليد إلى الأعلى أم إلى الأسفل على رأس الطفل، ولكل ثقافة مجموعة من الحركات الجسديّة خاصة بها للتعليق على الناس والأشياء، مثل الحركات المختلفة في الثقافة البريطانيّة والمقصود منها مثلاً الدلالة على أن شخصاً ما قد فقد عقله أو أن الطعام جيد.

وينبغي علينا ألاّ ننسى حركات الإشارة المستخدمة والمرتبطة بأسماء الإشارة مثل: هذا أو ذاك، وهنا وهناك. ومن النادر أن نستخدم التعارض القائم بين هذا وذاك، في الجملة نفسها (مثل: إن هذا أكبر من ذاك) دون استخدام واحدة من الحركات الإشاريّة الإيضاحيّة المصاحبة، حتى ولو كانت هذه الإشارة مجرّد إيماءة باتجاه الشيء المقصود.

وليس من الصعب أن نقارن بين وظيفة المتحدث ووظيفة قائد الفرقة الموسيقية الضخمة المكونة من عدد متنوع من أعضاء جهاز النطق، والأعضاء المرئية الأخرى في جسمه، والتي ينبغي عليه التحكم فيها، فالأداء الجيد يقتضي من القائد القدرة على التنسيق بين كل هذه الأعضاء، أيّاً كانت سرعة الأداء، وأيّاً كان عدد الأعضاء المشاركة في الأداء في أية لحظة من اللحظات، ولكن مهمة المتحدث مهمة أكثر صعوبة من مهمة قائد الفرقة الموسيقية لأن عليه أن ينسق بين أدائه وأداء قادة الفرق الأخرى في اللحظة نفسها التي يقوم كل منهم فيها بقيادة فرقته الخاصة، أي مع المشتركين في التخاطب.

وليس من الغريب أن نتصور أن الناس يفضلون القيام بأداء الوظائف المحفوظة، والقطع الجاهزة التي سبق إعدادها وذلك بدلاً من الارتجال الفوري.

ومن ذلك مثلاً طرفات العين مثل الغمز وبعض إيماءات الوجه مثل: الابتسامة والضحك، والتكشير، والضحكة الصفراء، والغضب مع تقطيب الحاجبين وجحوظ العينين، وهنا أسوق مثالاً على ذلك استثارني وأنا أقرأ كتاب أسرار البلاغة لعبد

القاهر الجرجاني حين أتى بقوله: "... ألا ترى إلى حديث الجمحي حيث حكى عن بعضهم أنه قال: أتيت الجمحي أستشيره في امرأة أردت التزوج بها، فقال: أقصيرة هي أم غير قصيرة؟ قال فلم أفهم ذلك. فقال لي: كأنك لم تفهم ما قلت، إني لأعرف في عين الرجل إذا عرف، وأعرف فيها إذا أنكر، وأعرف إذا لم يعرف و لم ينكر، أما إذا عرف فإنها تخاوص، وإذا لم يعرف و لم ينكر فإنها تسجو، وإذا أنكر فإنها تجحظ. أردت بقولي قصيرة أي هي قصيرة النسب تعرف بأبيها أو جدها".[6]

وقد وجه "بوردويسل" كبير عنايته للخاصية الثقافيّة للموضِّحات الحركيّة Les illustrateurs، والمعدلات الحركيّة Les regulateurs.

فالمُحَسِّنُ الحركيّ حَرَكَةٌ تصاحب التعبير الكلامي زيادة على الصفات التطريزيّة. وهذه المحسنات الحركيّة لا توجد أبداً بمعزل عن الكلام ويتلقّنها المجتمع جيلاً عن جيل، وذلك مثل حركات الحاجبين وحركات اليد التي باستطاعتها أن ترسم التأكيد أو النفي أو غير ذلك.

أما المعدلات الحركية فإنها تعدل التبادل الكلامي وتحافظ عليه، وذلك مثل حركات رأس المستمع الدالة على "نعم"، أو على موافقته للخطاب، أو مثل اتصال النظرات، ويعلم المتكلم اعتماداً على مثل هذه الحركات هل عليه أن يتابع الكلام أو أن يستأنف أو أن يتوقف أو أن يسرع... إلخ؟

وهكذا فليس التواصل غير الكلامي موضوع دراسة فقط، بل يجب على المتكلم أن يتحكم في جسمه لكي يزيد من قدرته على التواصل، وتصبح لغة الجسم آنذاك موضوع تعليم، ومن ثَمّ نستمد الدروس في التعبير الجسدي وتقنيات الإيماء من الاستئناس بالمسرح وببعض تعاليمه، مما يأتي على بيانات مكملة ـ غالباً ـ في هذا المجال الذي أهملته المدرسة.

فيجب الشعور بوجود التواصل غير الكلامي والإحساس بوجود نظامه. إن أول هم للخطيب ـ مثلاً ـ هو أن يكون على علم بمفاتيح الحركات التي يقوم بها كل واحد حسب طريقته: أي بحرية ومهارة، أو بصفة إبداعية، أو عكس ذلك بتصنع وتكلف ودون إلهام، وكذا بقصور ذاتي وارتباك وميوعة أو تخنث.

---

[6] عبد القاهر الجرجاني، **أسرار البلاغة**، تحقيق بلاشير (بيروت: 1954)، ص49.

وقد أعطى الماغنيطوسكوب Le magnegoscope (وهو شريط مغناطيسي لتسجيل صور التلفزيون) إمكانات تحقيق أبحاث في المجال غير الكلامي. وهنا يكتشف المشاركون في التخاطب دائرة معارفهم بكل ما في الكلمة من معنى، بحيث يصيرون متفرجين على أنفسهم، علاوة على ما يستندون إليه من ملاحظات الجماعة، وذلك بالتنبيه على التفاعل الحاصل بين ما هو غير كلامي وما حصل عند مخاطبيهم من تفاعل أو استماع، وبذلك يتعلمون وضع ترتيبات لقدرتهم على التواصل.

إن المسألة ليست مسألة إلغاء بعض الإيماءات أو بعض الحركات فنيّاً، بل هي مسألة التمرن على وضع المكونات الحركاتيّة في خدمة التبادل، وهذا يعني أن حركاتٍ ما يمكن أن تشوش أو تشوه أو تحرف اتجاه التفكير (النظرات الحائرة، والإيماءات المزعجة الطائشة، والعادات المستهجنة الدائمة، أو السعال، أو الابتسامة المرسومة المكررة).

إن التمحيص في الإيماءات يمكن أن يؤدي بنا إلى فهم جيد للمزاج الشخصي، فلقد فهرس الدكتور إرمين Ermiane التعابير والإيماءات الناتجة عن التحريك المؤلف لـ 52 عضلة أساسية توجد تحت جلد الوجه كما فهرس 16 نظرة ممكنة. فخلص إلى أن "الطريقة التي نمثل بها حياتنا ترتسم على وجوهنا إما بصفة دائمة مثل التجاعيد والتعابير، وإما بصفة مؤقتة تخدع إيماءاتنا. وخلال مقابلة ما فإن الذي يستطيع أن يقرأ الإيماءات يرى بجلاء ما يشعر به مخاطبه في أعماقه".[7]

هذا، ونرى أن التواصلات غير الكلاميّة ما هي إلاّ وسيلة ضمن أخريات لإرسال الأخبار، ومن المهم أن نضعها في إطار أنسقة التواصل التي تشكل فيها تلك النظريّة أحدث معرفة علميّة وبهذه الطريقة ستتجلى خصائص التواصلات غير الكلاميّة العامّة التي من ضمنها التجاورية La Proxemique وهي ما سوف نراه مع "إدوار هول".

التجاوريّة La Proxemique:

تمثل التجاورية عنصراً من عناصر المقام، وهي نظام عرفي للمسافة التي تفصل بين المرسل والمستقبل، تلك المسافة التي تختلف من ثقافة إلى أخرى، والتي نحتفظ بها بيننا وبين

---

[7] Lionel Bellenger, *Expression Orale*, p. 60.

مخاطبنا، وهي المكان الذي نحتله في مجلس رفقة أو حول طاولة... إلخ، وهي علامات تدلّ على وضعنا الاجتماعي، وتشكل نظام رموز تختلف أدواته بحسب الثقافات.

وإذا كانت الحركاتية لصيقة بجسم المتكلم وذاته، فإن التجاورية تهتم بحيز المكان، أي المقام المباشر للمتخاطبين وقد أثار "إدوارهال" مؤسس هذا العلم السؤال الآتي: بأية طريقة يبعث المكان الرسالة؟ وأجاب قائلاً: إن الأحداث المكانية تعطي للتواصل تنغيمه ونبره، وتتجاوز في كثير من الأحيان الخطاب وتدفق الكلام وتغيير المسافة بين شخصين وهما يتحاوران. وهذا ما يسهم في عمليّة التواصل الناجح، فالمسافة العاديّة بين غريبين أثناء حوار ما تزيد من أهمية النشاط التفاعلي المكاني، فإذا اقترب أحد المتحاورين اقتراباً زائداً عن الحد المعتاد، فإن الردّ سيكون مباشراً وآليّاً بابتعاد الطرف الآخر، وإذا اقترب الأول من جديد فإن الآخر يبتعد من جديد.

ويحكي إدوارهال حادثة من هذا النوع، حيث رأى أمريكيّاً يبتعد على طول ممر، وذلك لأنه وجد غريباً ثقيل الظل يحاول الاقتراب منه وتكرر هذا المشهد مئات المرات، فالأول يحاول أن يوسِّع المسافة التي تفصل بينهما لكي يشعر بالراحة، والآخر من أجل الغاية نفسها يحاول أن يختصرها، وهذا مثال نموذجي ضارب في عمق الثقافة التي توجه السلوك.[8]

إن مما يزيد في صعوبة فهمنا للثقافات المختلفة هو أنه في بعض الأحيان يوجد في ثقافتنا أناس يحبّذون الاقتراب من بعضهم، وآخرون يحبذون الابتعاد والنفور وذلك تبعاً لطريقتهم في استعمال المكان.

وقد أجرى إدوار هول دراسة تطبيقية على عيّنة من الأمريكيين عن العلاقة بين تغير الصوت والتحول في مقدار المسافات الفاصلة بين طرفي الخطاب، وخلص إلى النتائج الآتية:

1. قريب كل القرب من مخاطبه (المسافة هي من 10 إلى 20 سنتم): يكون هناك همس في غاية السِّرِّية.
2. قريب من مخاطبه (المسافة هي من 25 إلى 35 سنتم): يكون هناك همس مسموع شيئاً ما وسرّي.

[8] Edward. T. Hall, *Le Langage Silencieux*, traduction de Jean Mesie et Barbara Niceal (Paris: ed. seuil), p. 206.

3. مقترب، من مخاطبه (المسافة من 40 إلى 60 سنتم): يكون داخل قاعة صوت هادئ وخارجها صوت عادي وسري.
4. في مسافة تتراوح ما بين 60 إلى 100 سنتم: يكون الصوت هادئاً والكثافة مرتفعة والخبر شخصي.
5. في مسافة تتراوح ما بين 120 إلى 150 سنتم: يكون الصوت عادياً والخبر شخصياً.
6. في المسافة مع الجمهور ما بين 160 إلى 240 سنتم: يكون الصوت عادياً ومرتفعاً شيئا ما والهدف إعلام الجمهور.
7. وتكون المسافة شاملة للقاعة ما بين 240 إلى 600 سنتم: عندها يكون الصوت قوياً والهدف إخبار مجموعة من الناس.
8. وفي مسافات قد تكبر أو تصغر داخل قاعة ما بين 600 إلى 740 سنتم أو في الخارج إلى حدود 30 متراً: يكون الصوت على مداه، مثلاً: عند الوداع.

ولاحظ "هول" أن مسافة التخاطب في أمريكا اللاتينية تقل شيئاً ما عنها في الولايات المتحدة، ولا يشعر أهلها بالارتياح إلاّ إذا اقتربوا من مخاطبهم، تلك المسافة التي تقلق سكان أمريكا الشماليّة وتجعلهم يتراجعون إلى الوراء، وبسبب ذلك يصفونهم بأنهم يحبون الابتعاد، وأنهم يتصفون بالبرودة، والنفور، والانغلاق على أنفسهم. وفي المقابل يصفهم الشماليون بأنهم ينفخون في آذانهم، ويهاجمونهم إلى غاية أنهم يبصقون في وجوههم".[9]

أما الطريقة التي أَلِفَها من عاش من أمريكيي الولايات المتحدة في أمريكا اللاتينية ـ دون أن يشعروا بمواقفهم إزاء المكان ـ فهي بقاؤهم بقرب مكاتبهم واستخدامهم للكراسي وللآلات الكاتبة ليجدوا المسافة المريحة بينهم وبين اللاتينيين.

والنتيجة أن هؤلاء اللاتينيين يوشكون أن يتخطوا هذه الحواجز لاختصار المسافة كي يريحوا أنفسهم.[10]

وبالفعل يرجع الفضل إلى هذا الأمريكي في الأعمال الأولى المعمقة التي تتعلق بمدى تأثير المسافة بين المتخاطبين في التواصل، وأعماله تلك تؤرخ مباشرة لما بعد

---

9 نفس المصدر، ص206.

10 انظر نفس المصدر، ص210.

الحرب العالمية الثانية. تلك المرحلة التي لاقى فيها العسكريون والدبلوماسيون ورجال الأعمال أسوأ الأحوال للتفاهم والتآلف مع زمان ومكان التواصل الاجتماعي عند الآسيويين والإفريقيين والأوروبيين، وقد نشر إدوار بحثه الأول: The Silent Language سنة 1959.

ويرى "بيير غيرو" أن في كل مظاهر التجاورية نوعاً من "سيميولوجيا المكان والزمان" فدراسة وضع المتخاطبين تعني فهم الطريقة التي يملؤون بها المكان الذي يتكلمون منه والمسافات التي يحافظون عليها بينهم وإدراكهم لاستعمال الزمن في التواصل الاجتماعي الذي ينشئونه. فإن قلنا عن شخص ما إنه "مبتعد"، فذاك يعني أنه يحتل مكانة مهمة، وإن قلنا أنه مقترب، فذاك لأنه قريب من معاونيه ويحترم الوقت.

إن كل هذه الرمزية في التواصل الاجتماعي تتخلل الكلام وتنفرد على الخصوص بالتعبير الشفوي لكل فرد على حدة.

وقد طور "إدوار هول" أبحاثه وصاغها في قالب جديد في كتابه الثاني الذي أصدره سنة 1966 تحت عنوان: **البعد الخفيّ** The Hidden Dimension[11] بحيث صنف المسافات إلى أربعة:

1. المسافة الشخصية (من 45 إلى 120 سنتم): وتسمح هذه المسافة بتمرير الأخبار بين متخاطبين دون خطر ولا مساوئ، بحيث يرى بعضهما الآخر، ويتفاهمان جيداً ومن الممكن أن يتصافحا باليد ويشعر الواحد منهما بالآخر.
2. المسافة الاجتماعيّة (ما بين 120 سنتم و210): وتشكل حيز طاولة أو مكتب (مما يستحيل معه الارتباط الجسدي، ويكون الصوت مجهوراً والنظر صافياً، لكن الإحساس الشمي والحراري منعدم.
3. المسافة الحميمة (ما بين 0 و45 سنتم): وتنتمي إلى الاحتياط والتأثر أو العدوان والتهجم (وتدخل هذه المسافة في عدة مواصفات حيث يكون النظر منحرفاً، والصوت منخفضاً، والاتصال مرحاً أو عنيفاً، ويتصل الجلد بالجلد، وكذا الروائح.. إلخ
4. المسافة الجمهورية وتكون من أربعة إلى ثمانية أمتار وزيادة: وهذا مقام الخطيب

---

[11] وقد ترجم إلى الفرنسية سنة 1978 تحت عنوان: La dimension cachée.

الذي يتوجه إلى الجمهور (وقتها يرتفع الصوت، ويتسم النطق بالفصاحة، وتأخذ الحركة شكلاً ما، وتتقولب النظرة فتصبح شاملة..إلخ).

وعلى المتكلم أن يراعي لاشعورياً أو في انتباه محدود تلك الأعراف الثقافيّة، وهذه الأحداث "التجاورية"، إنها تؤثر في الكلام وتوجهه كيفما كان وكيفما صار.

ومخاطبة شخص ما مجهول في مصعد ضيق يفترض مسافة حميمة تفرض تآلفاً اجتماعيّاً، وترتب عن تلك المسافة المفروضة ضجر وتراجع خفيف إلى الوراء، ثم غض للطرف ثم الجفوة.. إلخ.

وعكس هذا نلاحظه في إيماء الخطيب الحزين المقيم عالياً معزولاً في منبر أو منصة باحثاً عن المسافة الحميمة مع المستمعين المحافظين على المسافة الجمهورية. ويمكن أن يكون تنظيم المحيط المباشر للخطيب موضع اتفاق مثل أن نضع المستمعين في صفوف، أو في حلقة أو اتفاقا. إن الذي يتكلم له عاداته ومركزه وأصدقاؤه الذين يعتمد عليهم ويتآلف معهم.

ونجلس في المطعم إما جنباً إلى جنب وإما وجهاً لوجه، وفي الاجتماعات نضع الطاولات على شكل U أو V أو في شكل دائري O.

وتحدد قوانين التكريم بتصرف الخدم في إعداد المكان، ونعين المكان الذي نتكلم منه (خشبة مسرح، أو منصة، أو منبر)، ونغلق الأبواب، أو نفسح المجال ونضع الحواجز، ويرفع الخطيب أو المحامي على سواعد قوية وسط الزحام، وترتب الأماكن: فنضع الرئيس في الوسط والنساء بمحاذاة الرجال... وعلى المتكلم أن يكون متيقظاً لأن التصرفات تكون على خط سواء مع المسافات أمارة على النوايا، ومن الضروري أن نراعي الحدود التجاوريّة لأجل ضمان قدرة أحسن على التواصل.[12]

وقد حاول الكُتّاب الأنجلو ساكسون أن يطوروا أبحاث "إدوار هول" في هذا المجال وعلى الخصوص فاست J. Fast في كتابه: **لغة الجسد** Body Language، والكاتب كوفمن في كتابه: **سلوك الأماكن العامة** Behavior of Public Places، وكذا فاستون Wastonc في كتابه: **السلوك التجاوري** Proxemi Behaviour، وقد قارن هذا الأخير المسافات التي تفصل بين المتخاطبين أثناء الحوار، ولاحظ أن الحيز المكاني الشخصي يزيد في الاتجاه الآتي: "العرب والهنود والباكستانيون والأوروبيون الجنوبيون

---

[12] P. Guiraud, *Le Language du corps* (paris: Ed. P.U.F, 1980), p. 92.

والأمريكيون اللاتينيون والآسيويون، والأوروبيون الشماليون، والفروق لها دلالة، إلاّ إذا عارضنا المجموعة الناشئة بالثقافات الثلاث الأولى مع الثقافتين التاليتين لها، وكذا مع الثقافة الأخيرة".[13]

ويظهر مبدئياً أن هذه التصورات المحتملة تقترب من الإجماع باتفاق الكثير عليها. وقد قدر " إدوار هول" أن السلوك التجاوري قابل لأن يقاس انطلاقاً من بعض المتغيرات وارتأى فاستون أن يحتفظ بخمس من هذه التوابث أو المعايير.

1. المحور الاجتماعي النابذ والمحور الاجتماعي الجاذب L'axe Sociofuge Sociopete.
2. العوامل الحركاتية Les Facteurs Kinesthesiques.
3. الاتصال اللمسي Le Contact Cutane.
4. الاتصال المرئي Le Contact Oculaire.
5. قوة الصوت: L'intensite de voix.

و لم يجد فاستون أي تضايف بين هذه المتغيرات وذلك من خلال مجموعات ثقافية أنشأها انطلاقا من 110 طالب وتأكد لديه أن هذه العوامل لا تقيس بالضبط الظاهرة نفسها، وأن عليه ألاّ يعتمد عليها.

واعتماداً على الاختلاف بين الثقافات نلاحظ أنه في العلاقة الحميمة يزيد الحيز المكاني إذا أعقبتها معايير أخرى مثل اتجاه النظر أو المواقف.

وإذا كان من الواقعي أن النفور ينتمي حقاً إلى الدفاع عن وحدة الجسم أو تقدير "الأنا"، فمما لا يقبل الجدل أن هذين الإجراءين يخضعان بنفسيهما إلى معايير متنوعة جداً، وذلك مثل الاشمئزاز النفسي، والتقزز الجسدي، والقوالب الثقافيّة، والشعور الشخصي، والمتطلبات الأخلاقية... إلخ.

وتجدر الإشارة إلى الاقتراب والابتعاد يعدّان عاملين من عوامل الانجذاب والنفور، فهناك إمكانية أن يؤثر المستقبل في كمية ونوعية الأخبار التي يتلقاها بتحركه في الحيز المكاني الذي يفصله عن المرسل.

ولقد تصور "هول" أن الحيز المكاني بين الأفراد شديد الارتباط بهذا النمط من الظواهر، ومن ثَمَّ يكون الحيز المكاني وظيفة لقنوات الحواس المستعملة ولمجموع لأخبار التي يستطيع الفرد أن يستقبلها، وكل ثقافة تفضِّل نوعاً ما من الحواس

---

[13] Jaques Corrage, *Les Communications non verbales* (Paris: Ed. P.U.F, 1986), p. 175.

المستقبلة. ويرى "هـول" أن العربـي مثـلاً، يسـتخدم مسـافات أقصـر مـن تلـك الـتي يستخدمها الأمريكي؛ لأنه يغلّب القنوات اللمسيّة والشميّة على الأخريات.

وتصنيفه للحيز المكاني إلى أربعة مناطق ينطلق من هذا المبدأ الأسـاس. ففـي الحـيز المكاني الحميم (ما بين 0 و40 سنتم) تكون الروائح والحرارة والاتصالات اللمسيّة هـي التي تسيطر، علما بأن النظر القريب جداً يشوه الصورة.

أما الحيز المكاني الشخصي (من 40 إلى 120 سنتم) فيمتد إلى حدود اللحاق بجسد الغير.

والمسافة الاجتماعيّة (ما بين 120 إلى 350 سنتم) تنتهي إلى النقطة التي يكـفّ الحـوار فيها عن أن يكون ممكناً.

وأخيراً المسافة الجماهيريّة (من 3.5 م فما فوق) لا تمكّـن مـن الاسـتماع إلى حـوار عامي.[14] فإذاً يجب أن نقبل الفكرة القائلة بأن تنظيم الحيز المكاني ينطلـق مـن قنـوات التواصل لأنها وسيلة من وسائل مراقبة الأخبار واستعمال كميتها ونوعيتهـا المدهشـة والمبتكرة. ولقد سبق أن لفت "هدسون" انتباهنـا في كتابـه "علـم اللغـة الاجتمـاعي" وخاصة عند تقسـيمه التواصـل غـير الكلامـي إلى شـواهد العلاقـات وشـواهد البنيـة وشواهد المضمون إلى هذه المسألة بالذات.

ونشير إلى أن شواهد العلاقات هي الدراسة التجاوريّة عنده حيث قال عنها إنه "ليـس من الصعب أن نتصور أن المسافة الماديّة (المكانيّة) التي تفصـل بـين شـخصين تتناسـب مـع المسـافة الاجتماعيّـة في كـل الثقافـات، وبالتـالي فـإن الذيـن يشـعرون بتقـاربهم الروحـي سيقتربون من بعضهم بعضاً نسبياً عند التعامل، وبذلـك تقـع علاقـات المحبـين في جـانب، وتقع في جانب آخر المواقف غير الشخصيّة والرسميّة، حيـث تكـون المسـافة الفاصلـة بـين المتحدث والمتلقي مسافة كبيرة، كما هو الحال في المسرح. وقد تصل إلى حدّ عدم القدرة على رؤية المتحـدث، كمـا هـو الحـال في المذيـاع والتلفزيـون، وتتمثـل الاختلافـات بـين الثقافات بتحديد المسافة التي تتلاءم مع درجة معينة من التضامن...".[15]

وهكذا تتآلف شواهد العلاقات التي تشكل التجاوريّـة، وشـواهد البنيـة وشـواهد المضمون التي تشكل الحركاتيّة، وكذا الصفات التطريزيّة لتشكل هذه الثلاثة التواصـل غير الكلامي، وبإضافة التواصل الكلامي الذي يشكل الأساس نحصـل علـى التواصـل بشكل عام على المستوى اللساني الشفوي.

---

14 نفس المرجع السابق، ص176-177.

15 هدسون، مرجع سابق، ص210.